



الأزومة التاريخية لأدب اللجوء عند العرب

The Historical Roots of Refugee Literature Among the Arab

شعبان توفيق¹:

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

¹ المركز الجامعي مغنيّة تلمسان (الجزائر)، Chabane.toufik14@yahoo.com

ملخص:

تتناول هذه الدراسة الجذور التاريخية لأدب اللجوء وتطوره في السياق العربي، بدءاً من العصر الجاهلي ووصولاً إلى العصر الحديث، وتوضح كيف تشكلت بدايات هذا الأدب وتطوره تدريجياً، مستنداً إلى كونه من المفاهيم والمصطلحات التي تتعدّد تسمياتها بتعدّد الظواهر المرتبطة بها، فهو يعرف تارةً بأدب الهجرة، وتارةً بأدب المنفى، أو المهجر، أو اللجوء، أو الارتحال، أو الاغتراب، أو الشتات... وذلك بحسب أسباب الظاهرة وسياقاتها التاريخية والاجتماعية. ورغم هذا التعدّد في التسمية، فإن جميعها تشير في مجملها إلى النتاج الأدبي الذي أنتج خارج حدود الوطن. وبتابع المنهج التاريخي، توصلنا إلى أنّ العرب عرفوا اللجوء منذ العصور القديمة، وقد عبّروا عنه أدبيّاً عبر الشّعروالنثر على حدٍ سواء

كلمات مفتاحية: الأدب اللاجئ؛ تاريخ الأدب اللاجئ؛ أدب اللجوء عند العرب؛ اللجوء

Summary:

This study addresses the historical roots of exile literature and its development within the Arab context, starting from the pre-Islamic era and extending to the modern age. It clarifies how the beginnings of this literature were formed and evolved gradually, based on the idea that it encompasses concepts and terms that vary in naming according to the different phenomena associated with it. It is sometimes referred to as migration literature, sometimes as literature of exile, or as 'mahjar'

المؤلف المرسل: شعبان توفيق، الإيميل: Chabane.toufik14@yahoo.com

(emigration), or simply exile, or wandering, or estrangement, or diaspora, depending on the causes and historical and social contexts of the phenomenon. Despite this variety in nomenclature, all of them generally refer to the literary output produced outside the nation's borders. By following the historical method, we have found that Arabs have known exile since ancient times, and they expressed it literarily through both poetry and prose."

Keywords: refugee literature; history of refugee literature; Arab asylum literature; asylum

1. مقدمة :

يدل اللجوء في معناه اللغوي على الاحتماء والالتجاء إلى مكان أو شخص طلباً للأمان أو الحماية. فهو في قواميس اللغة مصدر الفعل "لَجَأَ" ويُقال: لجأ إلى الشيء أي اعتصم به أو احتوى فيه. أمّا اصطلاحاً فتعد الوثائق والقوانين الدوليّة هي المرجع الأساس في تحديد مفهوم اللجوء واللّاجئين من النّاحية القانونيّة؛ وأبرزها اتفاقية الأمم المتّحدة الخاصّة بوضع اللّاجئين، وقد تضمّنت الاتفاقية لعام 1951 تعريفاً لمصطلح اللّاجئ، ينص على "أنّ كلّ شخص يوجد نتيجة لأحداث وقعت قبل 1 يناير/كانون الثّاني 1951، وبسبب خوف له ما يبرّره من التّعرض لاضطهاد بسبب عرقه أو دينه أو جنسيّته أو انتمائه إلى فئة اجتماعيّة معينة أو بسبب آرائه السّياسيّة، خارج بلد جنسيّته، لا يستطيع أو لا يريد بسبب ذلك الخوف أن يستظل بحماية ذلك البلد، أو كلّ شخص لا يملك جنسية، ويوجد خارج بلد إقامته المعتادة السّابق بنتيجة مثل تلك الأحداث، ولا يستطيع أو يريد بسبب ذلك الخوف أن يعود إلى ذلك البلد".

الأدب اللّاجئ هو أدب ذو صلة وثيقة بالوجود الإنسانيّ، وهو صدى للواقع وصورة من الحياة، أنتجته معاناة الإنسان البعيد عن وطنه، حيث برز وتشكّل من خلال ما عبّر عنه اللّاجئون الذين فقدوا أوطانهم، وعاشوا التّزوج، والاضطهاد، والاعتراب، والحنين، والهمّ، والتّعب، والشّدّة... وقد عرفت العرب منذ القدم هذه المكابدة والمقاساة في البعد عن الأوطان، فاستوحتها وعبّرت عنها بمختلف أجناس التّعبير وأشكاله، مثلها مثل بقية الأمم. وعليه نطرح الإشكاليّة التّالية: كيف تشكّلت بدايات هذا الأدب اللّاجئ؟ وكيف كان تطوره عبر العصور؟ وماهي صوره، وأشكاله ووسائل التّعبير عنه؟

وحثّي يتسنى لنا البحث، كان لابدّ من اتباع المنهج التّاريخيّ، لنصل إلى تاريخ هذا الأدب، ونعرض له من مختلف جوانبه.

2. لمحة تاريخية

يرتبط ظهور أدب اللجوء تاريخياً بظهور الهجرة والشّتات منذ الحقب القديمة التي تعود إلى ما قبل العصور الوسطى (القرن الثامن قبل الميلاد)، وقد تشكّلت أوّل صوره وملامحه عند اليونان، حيث تمّ التعبير عنه في الملحمة الشّعريّة البديعة (الإلياذة/الأوديسة) للشاعر الإغريقيّ هوميروس،¹ والتي صوّرت معاناة اللاّجئين وعبّرت عن آلامهم في حرب طروادة بين الإغريق (اليونان) والطّرواديين، والتي دامت مدّة عشر سنين من المعاناة الإنسانية (النّزوح، التّهجير، فقدان الوطن أو البعد عنه، انعدام الأمان، المصير المجهول، الخوف من فقدان الهويّة بعد الحرب، الغربة، الخوف من العبوديّة والنّفي والأسر كبريزيس التي أخذت غنيمة حرب لأخيل...)

وتواصلت الكتابات المتعلّقة باللّجوء تترأّ نتيجة الحروب الصّليبيّة، وسقوط الدّولة الإسلاميّة في الأندلس، وصولاً إلى الثّورات في القرن 19 (الثّورة الفرنسيّة) ممّا جعل الأدباء البعيدين عن أوطانهم يعبّرون عن تجاربهم، ويكتبون معاناتهم في المنفى، كتجربة فيكتور هيجو *Victor Hugo* (1855م) وهو يتحدّث عن شوقه لبلاده الأمّ (فرنسا) وينتقد بشدّة دكتاتوريّة نابليون القائمة للحريّات، من خلال مجموعة قصائد وجّهها ضدّ الظّلم والاستبداد (عقوبات/ تأمّلات...) ومن أقوال فيكتور هوجو المشهورة: "الإنسان الذي يرى وطنه أثيراً على نفسه هو إنسان غفل، طريّ العود، أمّا الإنسان الذي ينظر إلى أيّ تربة وكأنّها تربة وطنه، فهو إنسان قويّ، أمّا الإنسان الكامل فهو ذلك الإنسان الذي يرى العالم بأسره غريباً عليه"²

كما استطاع الأدباء والمبدعون في القرن العشرين التعبير عن معاناتهم من الحريين العالميّتين الأولى والثّانية، وما نتج عنهما من نزاعات، فعبّروا عن الشّوق إلى الأوطان، والأمل، والحريّة...

3. من صور اللّجوء عند العرب

1.3 اللّجوء في الجاهليّة:

عُرف اللّجوء عند العرب منذ القدم، ولعلّ أبرز مظاهره وصوره في الجاهليّة قبل الإسلام ما كان من لجوء الصّعاليك إلى الجبال والبوادي والصّحاري، بعد الثّورة على عرف القبيلة (الوطن)، وكسر قوانينها، ومنهم الشّنفرى (525م) وثابت بن جابر السّعديّ الملقّب بـ

تأبَّط شراً (530م) والسُّليكَ بن سُلُكَة التَّمِيمِيَّ (606م) وعروة بن الورد العبسي (607م) حيث اشتهر الشَّنْفَرى بنتاجه في ميدان الشَّعر بـ "لامية العرب" التي عبَّر فيها عن أخلاق العربيِّ الفارس النَّبيل، كما أظهر فيها وصوُّر حالة بُعده عن قبيلته وقومه، في مقابل لجوئه وركونه إلى الطَّبيعة (المكان، الحيوان):

وَفِي الْأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى ... وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقِلَى مُتَعَزِّلُ
لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضَيْقٌ عَلَى إِمْرِيٍّ ... سَرَى رَاغِباً أَوْ رَاهِباً وَهُوَ يَعْقِلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسٌ ... وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جِيَالُ
هُمُ الرِّهْطُ لَا مُسْتَوْدَعُ السَّرْدَائِعِ ... لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَلُ
وَكُلُّ أَبِيٍّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنِّي ... إِذَا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ³

ثمَّ إِنَّ تَأَبَّطَ شَرًّا قَدْ عَبَّرَ فِي قَصَائِدِهِ عَنْ صِرَاعِهِ مَعَ الْوَاقِعِ، وَأَبَانَ عَنْ ثَوْرَتِهِ ضِدَّ عَوَالِمِ الْيَأْسِ وَالْجُوعِ وَالتَّشَرُّدِ، وَقَصِيدَتُهُ الْقَافِيَّةُ (يَا عَيْدُ) مِنْ أَجْمَلِ الْقَصَائِدِ:

يَا عَيْدُ مَا لَكَ مِنْ شَوْقٍ وَإِيرَاقٍ ... وَمَرَّ طَيْفٍ عَلَى الْأَهْوَالِ طَرَاقٍ⁴

ومن شعر السُّليكَ بن السُّلُكَة الملقَّب بالرتِّبال الذي يقدِّم صورةً لحياته (غاراته وفخره) قوله:

لَعَمْرُ أَيْبِكَ وَالْأَنْبَاءُ تُنْهِ ... لَنِعَمَ الْجَارُ أَخْتُ بَنِي عَوَارَا
مِنْ الْحَفَرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَبَاهَا ... وَلَمْ تَرْفَعْ لِإِخْوَتِهَا شَنَارَا
كَأَنَّ مَجَامِعَ الْأَرْدَافِ مِنْهَا ... نَقَى دَرَجَتَ عَلَيْهِ الرِّيحُ هَارَا
يَعَافُ وَصَالٌ ذَاتِ الْبَدَلِ قَلْبِي ... وَيَتَّبِعُ الْمُمَنَّةَ النُّوَارَا

وَمَا عَجَزَتْ فَكْمُهُ يَوْمَ قَامَتْ ... بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاسْتَلْبُوا الْجِمَارَا⁵

وفي ديوان الشَّاعر عروة بن الورد العبسي أمير الصَّعاليك، قصائد ومقطوعات رائعة ذات بعد أخلاقي، يمكن أن يصنَّف العديد منها، ويدخل ضمن أدب اللُّجوء. لعلَّ من أهمها قصيدته الرَّائِيَّة، الَّتِي يُوَسِّسُ فِيهَا لِمَفْهُومِ الصَّعْلَكَةِ، وَيَصَوِّرُ ضَمْنَهَا صِفَاتِ الصُّعْلُوكِ الْقَوِيِّ الْعَامِلِ، فِي مَقَابِلِ صِفَاتِ الصُّعْلُوكِ الْخَامِلِ الْمُنْبُوذِ، مَطْلَعَهَا:

أَقْلِيَّ عَلَى اللَّوْمِ يَا بِنْتَ مَنْذَرٍ ... وَنَامِي وَإِنْ لَمْ تَشْتِهِ النَّوْمَ فَاسْهَرِي⁶

ومن صور اللُّجوء أيضاً لجوء الشَّاعر إِمْرِيِّ الْقَيْسِ حُنْدُجُ بْنُ حُجْرٍ بْنِ الْحَارِثِ الْكِنْدِيِّ (500-540م) إِلَى الرُّومِ مَعَ أَحَدِ رِجَالِ أَبِيهِ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ عَمْرُو بْنِ قَمِيئَةَ، فِي اغْتِرَابِ

مكاني، يقصد فيه القسطنطينية للقاء الإمبراطور جستينيان الأول، يستنصره، ويستمد منه جيشا يقاتل معه، ويسترد به حكم أبيه، وينتصر لطموحه، وقد سار معه القيصر جيشا، لكنّه انقلب عليه بعد وشاية الطّماح الأسديّ، وبعث إليه بحلّة موشاة كان فيها هلاكه⁷ وقد قال امرؤ القيس في ذلك قصيدته السّينية:

أَلَمَّا عَلَى الرَّبْعِ الْقَدِيمِ بَعَسَعَسَا ... كَأَنِّي أَنَادِي أَوْ أَكَلِّمُ أَخْرَسَا
فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الدَّارِ فِيهَا كَعَبِدْنَا ... وَجَدْتُ مَقِيلًا عِنْدَهُمْ وَمُعَرَّسَا
فَلَا تُنْكِرُونِي إِنِّي أَنَا ذَاكُمْ ... لِيَالِي حَلَّ الْحَيِّ غَوْلًا فَأَلْعَسَا
فَإِمَّا تَرِينِي لَا أُغَمِّضُ سَاعَةً ... مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ أَكُبَّ فَأَنْعَسَا
تَأَوَّبَنِي دَائِي الْقَدِيمُ فَغَلَّسَا ... أَحَاذِرُ أَنْ يَرْتَدَّ دَائِي فَأُنْكَسَا
فَيَا رَبَّ مَكْرُوبٍ كَرَّرْتُ وَرَاءَهُ ... وَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنْفَسَا
وَيَا رَبَّ يَوْمٍ قَدْ أَرُوحُ مُرْجَلًا ... حَبِيبًا إِلَى الْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ أَمْلَسَا
يَرْعَنُ إِلَى صَوْتِي إِذَا مَا سَمِعْتُهُمَا ... تَرَعَوِي عَيْطُ إِلَى صَوْتِ أَعْيَسَا
أَرَاهُنَّ لَا يُحِبُّنَ مَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلَا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسَا
وَمَا خِفْتُ تَبْرِيجَ الْحَيَاةِ كَمَا أَرَى ... تَضْيِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَقُومَ فَأَلْبَسَا
فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً ... وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تُسَاقِطُ أَنْفُسَا
وَوَيْدَلْتُ قَرْحًا دَامِيًا بَعْدَ صِحَّةٍ ... فَيَا لَكَ مِنْ نَعْمَى تَحَوَّلَنْ أَبُوسَا
لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ ... لِيُلْبِسَنِي مِنْ دَائِهِ مَا تَلْبَسَا
أَلَا إِنَّ بَعْدَ الْعُدْمِ لِلْمَرَّةِ قَنُوءَةً ... وَبَعْدَ الْمَشْيَبِ طَوْلُ عُمْرٍ وَمَلْبَسَا⁸

وهي قصيدة أنشدها حين فتك به المرض، واشتدّ عليه بعد عودته من رحلته إلى قيصر الرُّوم، وقد توجه فيها إلى رفاقه، وقد عدّت أقدم نتاج في أدب اللُّجوء، ومن أروع ما قيل في الشكوى والحزن والفرق.

ولمّا وصل إلى موضع من بلاد الرُّوم يقال له (أنقرة) وحانت ساعة احتضاره، رأى قبر امرأة من بنات ملوك الرُّوم، وقد دفنت بجانب جبل عسيب، فخاطبها قائلاً:
أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخُطُوبَ تَنُوبُ... وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ
أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَهُنَا... وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ
فَإِنْ تَصَلَّيْنَا فَالْقَرَابَةُ بَيْنُنَا... وَإِنْ تَصْرَمِينَا فَالْغَرِيبُ غَرِيبُ

أَجَارَتْنَا مَا فَاتَ لَيْسَ يَوْوبُ ... وَمَا هُوَ آتٍ فِي الزَّمَانِ قَرِيبُ
وَلَيْسَ غَرِيباً مَنْ تَنَانَتْ ديارُهُ ... وَلَكِنَّ مَنْ وَارَى التُّرَابُ غَرِيبُ⁹

ثمَّ مات، فدفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك.¹⁰

ومن اللُّجُوء كذلك ما كان من لجوء عبد المطلب جدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الله تعالى، وخروجه مع قومه من مكَّة نحو رؤوس الجبال والشَّعَاب، فرارا من بطش أبرهة ملك الحبشة فقد "قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لَا هُمْ إِنْ المرءَ يَمَنِّ... عَ رَحْلَهُ فَا مَنَعَ جَلَالُكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صَليِهِمْ ... وَمِحَالِهِمْ غَدَا مِحَالُكَ

إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبِي... لَمَتْنَا فَأَمْرًا بَدَا لَكَ"¹¹

وقد سجَّل عبد المطلب هذا التُّزُوج القسري، ووَثَّقَهُ تاريخياً. وقيل: أَنَّهُ قال في ذلك:

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ ... يَا رَبِّ فَا مَنَعَ مِنْهُمْ حِمَاكَ

إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مِنْ عَادَاكَ ... إِنَّهُمْ لَنْ يَقْهَرُوا قِوَاكَ"¹²

وقد غدا قوله لأبرهة الأشرم مثلاً لما طلب أن يردَّ عليه إبله: "إِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ،

أَوَّ لِلْبَيْتِ رَبُّ يَحْمِيهِ".

"قال ابن إسحاق: وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدَّار بن

قصي:

لَا هُمْ أَخْزِ الْأَسْوَدَ بْنِ مَقْصُودٍ ... الْأَخْذَ الْهَجْمَةَ فِيهَا التَّقْلِيدُ

بَيْنَ حِرَاءٍ وَثَلْبٍ فَالْبَيْدُ * يَحْبِسُهَا وَهِيَ أُولَاتُ التَّطْرِيدِ

فَضَمَّهَا إِلَى طِمَاطِمِ سُوْدٍ * أَخْفَرَهُ يَا رَبِّ وَأَنْتَ مَحْمُودُ

قال ابن إسحاق: ثمَّ أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من

قريش إلى شعف الجبال، فتحزَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكَّة إذا دخلها"¹³

وقد لجأ ملك العرب النُّعْمان بن المنذر إلى قبيلة الهانئ بن مسعود سيِّد بني شيبان،

ليُودِع عنده ماله ونساءه وسلاحه، ويجعلها في حمايته، ليتَّجه إلى مصيره المحتوم خلف أسوار

مدائن كسرى، لتتوالى بعدها الأحداث، وتنتصر الكتائب العربيَّة الباسلة على الفرس في

موقعة حاسمة تعرف بموقعة "ذي قار" بعد البعثة النَّبَوِيَّة.

وقد عبّرت هند بنت النُّعْمان بن المنذر عن معاناتها بعيداً عن الحيرة، وقد احتضنت قبائل بكر غربتها، وذلك بمنهج أدبي تمثل في مجموعة من المقطوعات الشعرية التي توثق حالة لجوئها، وأسبابها، ونتائجها، نعرض منها قولها:

ألا أبلغ بني بكر رسولاً ... فقد جدّ النّفيرُ بعنقفيرٍ
فليت الجيشَ كلّهم فداكم ... ونفسي والسّرير وذا السّرير¹⁴

وقولها:

لَمْ يَبْقَ فِي كُلِّ الْقَبَائِلِ مَطْمَعٌ ... لِي فِي الْجَوَارِ فَقَتْلُ نَفْسِي أَعُودُ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةً ... أَنِّي أَمُوتُ وَلَمْ يَعُدْنِي الْعُودُ
حَتَّى رَأَيْتُ عَلَى جَرَايَةِ مَوْلِدِي ... مَلِكاً يَزُولُ وَشَمْلُهُ يَتَبَدَّدُ
فَدُهِيتُ بِالنُّعْمَانِ أَعْظَمَ دُهِيَةً ... وَرَجَعْتُ مِنْ بَعْدِ السَّمِيدِ أُطْرُدُ
يَا نَفْسُ مُوتِي حَسْرَةً وَاسْتَيْقِنِي ... سَيَضُمُّ جِسْمَكَ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَلْحَدُ
خَابَ الرَّجَا ذَهَبَ الْعَزَا قَلَّ الْوَفَا ... لَا السَّهْلُ سَهْلٌ لَا نُجُودُ أَنْجُدُ
جَمَدَتْ عُيُونُ النَّاسِ مِنْ عِبْرَاتِهَا ... وَقُلُوبُهُمْ صُمٌّ صِلَادٌ جَلَمَدُ
لَا يَرْحَمُونَ يَتِيمَةً مَحْزُونَةً ... مَقْتُولَةً الْأَبَاءِ نَضُوءاً تُطْرُدُ
تَبْغِي الْجَوَارِ فَلَا تُجَارِ وَقَبْلَ ذَا ... كَانَ الْمُنَادِي لِلْجَوَارِ يُسَوِّدُ

وقالت أيضاً بعد الفوز بالوقعة (يوم ذي قار):

رغمنا بعمرؤ أنف كسرى وجنده ... وما كان مرغوماً بكل القبائل
هذا قصارى الأمر فاحمل محسراً ... لكميك ما بين الظبا والذوابل

وقالت أيضاً:

لَقَدْ حَارَ عَمْرُو مَعَ قَبَائِلِ قَوْمِهِ فَخَاراً ... سَمَا فَوْقَ النُّجُومِ الثَّوَابِ
هُمْ قَلَدُوا لَحْماً وَغَسَّانَ مِثَّةً ... بِسُمْرِ الْقَنَا وَالْعَادِيَاتِ الشَّوَابِ
حَمَتْنِي بَنُوشَيْبَانَ وَالْحَيَّ تَغْلِبُ ... بِقُبِّ الْمَذَاكِي وَالسُّيُوفِ الْقَوَاضِ
فَكَمْ فَرَجَ مِنْهُ عَلَيْنَا بِغَارَةٍ ... وَكَمْ حَمَلَةٍ يَوْمَ التِّقَاءِ الْكَتَائِبِ¹⁵

كما ساهم هذا اللجوء في إنتاج وخلق مساحة من القول والتعبير، تمثلت في خطبة قصيرة شهيرة، تعبّر عن الواقع المعيش، انطلاقاً من الهوية العربية، ارتجلها هاني بن مسعود الشيباني، يحرض فيها قومه يوم ذي قار ويحرك فيهم النخوة: "يا معشر بكر، هالك معذور؛

خير من ناج فرور، إِنَّ الحذر لا ينجي من القدر، وإنَّ الصَّبر من أسباب الظَّفَر، المنيَّة ولا الدَّنيَّة، استقبال الموت خير من استدباره، الطَّعن في تُغر النُّحور، أكرم منه في الأعجاز والظُّهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا بدُّ¹⁶

كما يمكن عدُّ قصيدة ميمون بن قيس الأعشى في تخليد يوم ذي قار (فِدَى لِبَنِي ذُهَلِ ابن شيبان ناقتي)¹⁷ من أدب اللُّجوء الَّذي يحكي أحوال العرب يومها، ويصف ذودهم عمَّن التجأ إليهم واحتوى بهم؛ لأنَّ مناسبة القصيدة والدَّاعي لها سببه الأوَّل والمحرِّك الأساس، يتعلَّق بلجوء الملك النُّعمان بن المنذر إلى قبيلة الهانئ بن مسعود الشَّيباني.

لم تكن تجربة اللُّجوء لدى الإنسان العربي في العصر الجاهلي مجرد انعكاس لظروف اجتماعيَّة أو سياسيَّة، بل كانت حالة شعوريَّة عميقة، وموقفًا وجدانيًا يعبر عن معاناة وجوديَّة حقيقيَّة. وقد استطاع العربي الجاهلي أن يصوِّر هذه التَّجربة ببلاغة فائقة، من خلال الشَّعر والنثر، مجسِّدًا مشاعر الاغتراب، والاعتزال، والتَّرحال، وفقدان الدِّيار والأحبَّة. فتحوَّلت هذه الصُّور إلى رموز ثقافيَّة راسخة، تعبر عن جوهر هويَّته، وتكشف عن عمق ارتباطه بالأرض والقبيلة والذاكرة.

2.3 اللُّجوء بعد الإسلام:

بعدما اشتد أذى قريش على الصَّحابة، أمر الرِّسول ﷺ بعضا منهم بالهجرة إلى الحبشة، ونصحهم باللُّجوء إلى الملك المسيحيِّ العادل "النَّجاشي" وكان الَّذي خاطب الملك جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بخطبته الشهيرة، الَّتِي قال فيها: "أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِيَ كُلَّ الْقَوِيِّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَقَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالِدِّمَاءِ، وَهَمَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ"، قَالَ: فَعَدَدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَدَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا

نَسْتَجِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكْ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَهْيَا الْمَلِكُ¹⁸ فكانت أول تجربة جماعية للجوء في الإسلام، عُبر عنها بخطبة فريدة خالدة.

وفي العصر الإسلامي اشتهرت أيضا قصة لجوء الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم طلبا للعفو والمنعة من القتل، فبعدما جاء كتاب بجير بن زهير إلى أخيه كعب يخبره أنه قد أُهدير دمه، لما كان من كفره وهجائه، قدم إلى المسجد، وألقى قصيدته الالامية "بانث سعاد" بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يعبر فيها عن ندمه وخوفه من العقاب:

أُنِيتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أُوْعِدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً ... قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ... أَذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقْوِيلُ
لَقَدْ أَقَوْمُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ ... أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ
لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ ... مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلُ
مَا زِلْتُ أَقْتَطِعُ الْبَيْدَاءَ مُدْرِعًا ... جُنَحَ الظَّلَامِ وَتَوْبُ اللَّيْلِ مَسْبُولُ
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أُنَازِعُهُ ... فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قِيلُهُ الْقِيلُ
لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أُكَلِّمُهُ ... وَقِيلَ إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْوُولُ¹⁹

وما كان من قصة لجوء الشاعر الحطينة في عصر عمر بن الخطاب للبرقان بن بدر سيد بني تميم، وتحولُه من جواره إلى بغيض بن عامر وإخوته، وفيها ألقى قصيدته "لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ"²⁰

لقد اتخذت تجربة اللجوء في عصر الإسلام طابعًا جديدًا ومختلفًا عن مثيلتها في العصر الجاهلي، إذ لم تكن مجرد حالة من الاغتراب والترحال أو فقدان الديار، ففي ظلّ التحول الحضاريّ الذي أحدثه الإسلام تحولت حالات اللجوء إلى قيمة إنسانية وأخلاقية مكفولة (حماية المستضعفين، العفو، العدل، الرحمة، الأمان...) ضمن المبادئ الشرعية والروحانية لهذا الدين الجديد، ليصير اللجوء حقًا مكفولًا.

3.3 اللجوء في العصر الحديث:

مع أنَّ العرب منذ الجاهليَّة عانت من ويلات اللُّجوء، والبعد عن الدِّيار (قسرا/ اختيارا) إلَّا أنَّ التَّجارب الأدبيَّة المعبرِّ عن أحوالهم بعيدا عن الوطن، ظلَّ شحيحا ومحدودا حتَّى النِّكبة الفلسطينيَّة (1948م) مع نهاية القرن العشرين، حيث ظهرت كتابات محمود درويش (على هذه الأرض ما يستحق الحياة)، وسميرة عزَّام، وغسان كنفاني (رجال في الشمس 1963 عائد إلى حيفا)، ومحمَّد الماغوط، ومحمَّد الأسعد، وفواز حداد (الصَّيف الجميل)

ولعلَّ الصُّورة توضَّحت أكثر، وصارت أكبر وأوسع راجا بعد الثَّورات العربيَّة المعاصرة، أو ما يسمَّى بالرَّبيع العربيِّ، حيث صارت فكرة اللُّجوء واقعا مفروضا تعيشه الكثير من الشُّعوب العربيَّة: العراقيُّون، السوريُّون، اليمنيُّون، اللُّبنانيُّون، اللِّيبِّيُّون إلى جانب إخوانهم الفلسطينيِّين الذين أرغموا على الخروج من أرضهم قبل أكثر من خمس وسبعين سنة.

ولا يزال الأدباء يعبرون -بكلِّ أشكال التَّعبير وأجناسه- عن اللَّاجئين بوصفهم ضحايا من جهة، وبوصفهم ناجين من جهة أخرى. ولعلَّ من أبرز التَّجارب وأشهرها: التَّجربة الفلسطينيَّة، التَّجربة اللُّبنانيَّة، التَّجربة العراقيَّة، التَّجربة السوريَّة.²¹

الشكل 1: لوحة (النزوح المجهول) للفنان السوداني "صالح عبدو" بالقهوة



4. خاتمة:

- يمثّل اللّجوء وكذا حماية المستجير، أقدس الواجبات وأعظم القيم الاجتماعيّة والإنسانيّة والبطوليّة عند العرب.
- أدب اللّجوء أدب يسجّل بدقّة المعاناة الإنسانيّة المرتبطة بفقدان الوطن، والنّزوح القسريّ، وظروف المعيشة القاسية في الأوضاع الجديدة،
- أدب اللّجوء يحمل رمزيّة عميقة لفقدان اللاّجئين لعوالمهم وأوطانهم، وقد استحال مساحة للتّفكير والإبداع، بعيدا عن مختلف القيود (سلطة القبيلة أو الحاكم)
- عرّف اللّجوء عند الأمّة العربيّة منذ القدم، وعانتها مثلها مثل بقيّة الأمم، فكان بداية تشكّله التّعبير عنه شعرا ونثرا.

● عبّر العربيّ عن اللُجوء قديماً من خلال الشّعْر أكثر من النثر، ذلك أنّه ديوان العرب، ومخلّد مآثرها، أمّا في العصر الحديث فقد توسّع التّعبير عن اللُجوء ليشمل مختلف أشكال التّعبير وأجناسه: شعراً، ورواية، وقصّة، ومسرحاً، ورسمًا، وسير ذاتيّة، ونحتاً...

● يعكس الأدب اللّاجئ معاناة اللّاجئين، والنّازحين (أفراداً وجماعات) ويعرض تجاربهم بصورة قويّة، من خلال تصوير المعاناة، وما تخلفه من مآسي إنسانيّة.

● الأدب اللّاجئ، وإن كانت له جذور في التّاريخ العربيّ، إلّا أنّ صورته توضّحت أكثر بعد أن صار اللُجوء واقعا مفروضاً تعيشه أغلب الشّعوب العربيّة إلى جانب الإخوان الفلسطينيين مع نهاية القرن 19

● الأدب اللّاجئ من ناحية المفهوم ليس كالأدب المهجريّ، أو أدب المنفى، أو أدب السّجون، أو أدب التّغريبة، أو أدب الرّحلة، أو أدب الشّتات... وإن كانت في مجملها تعبّر عن فقدان الوطن والحنين إليه، أنتجت ظروف الحروب والاضطهاد، إنّما هو مصطلح خاصّ بالنتّاج الأدبيّ المنتج خارج حدود الوطن المتعلّق بظاهرة اللُجوء فقط.

● الأدب اللّاجئ أدب واقعيّ يعبّر عن المعاناة، تميّزه ثيمات بارزة كالاغتراب، الهوية، الذاكرة، الأنا والآخر، الحنين للوطن...

5. التّوصيّات:

ضرورة تعزيز الاهتمام الأكاديميّ بأدب اللُجوء كنوع أدبيّ، وبيان دوره في التّعبير عن معاناة اللّاجئين وتجاربهم.

7. قائمة مصادر البحث ومراجعته:

1. ابن الأثير عزّ الدّين، الكامل في التّاريخ، تح: عمر عبد السّلام تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت لبنان، ط01، (1417هـ-1997م)
2. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (سورة الفيل)، ج08، ص485، وينظر: ابن هشام، السّيرة النّبويّة، تقديم: عمر عبد السّلام تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، (1426هـ-2005م)
3. ابن هشام، السّيرة النّبويّة، تقديم: عمر عبد السّلام تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، (1426هـ-2005م)

4. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت، لبنان، ج01
 5. أحمد محمّد شاکر وعبد السلام محمّد هارون، المفضّليّات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط06، (دت)
 6. أسماء أبو بكر محمّد، ديوان عروة بن الورد أمير الصّعاليك، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، (1418هـ-1998م)
 7. امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: حسن السّندويّ وأسامة صلاح الدّين منينمة، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط01، (1410هـ-1990م)
 8. إيميل بديع يعقوب، ديوان الشّنفري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، (1417هـ-1996م)
 9. بشير يموت، كتاب شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهليّة، بيروت لبنان، ط01، (1356هـ-1934م)
 10. حميد آدم ثويني وكامل سعيد عوّاد، السّليّك بن السّلكة أخباره وشعره، مطبعة العاني، بغداد، العراق، ط01، (1404هـ-1984م)
 11. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، (1976م)
 12. علي فاعور، ديوان كعب بن زهير، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، (1418هـ-1997م)
 13. شعيب الأنثووط وآخرون، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط01، (1461هـ-2001م)
 14. محمّد السّلوم، أدب اللّجوء السّوري؛ الشّتات والتّعبير الأدبي، منشورات مركز حرمون للرّاسات المعاصرة، (يناير 2018)، الدّوحة، قطر، غازي عنتاب، تركيا.
- <https://www.harmoon.org/?p=3214>
15. محمود إبراهيم الرّضواني، ديوان الأعشى الكبير، وزارة الثقافة والفنون، الدّوحة، قطر، ط01، (2010م)

16. مفيد محمّد قميحة، ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت، بيروت، لبنان، ط01، (1413هـ-1993م)

هوميروس، الإلياذة، تر: سليمان البستاني، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (2012م)

6. الإحالات والهوامش:

- ¹ - ينظر: هوميروس، الإلياذة، تر: سليمان البستاني، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (2012م)
- ² - ينظر: محمّد السلوم، أدب اللجوء السوري؛ الشّتات والتّعبير الأدبي، منشورات مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (يناير 2018)، الدّوحة، قطر، غازي عنتاب، تركيا.
<https://www.harmoon.org/?p=3214>
- ³ - إيميل بديع يعقوب، ديوان الشّنفري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، (1417هـ-1996م)، ص58-59
- ⁴ - ينظر: أحمد محمّد شاکر وعبد السلام محمّد هارون، المفصّلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط06، (دت)، ص27-28
- ⁵ - حميد آدم ثويني وكامل سعيد عوّاد، السّليک بن السّلکة أخباره وشعره، مطبعة العاني، بغداد، العراق، ط01، (1404هـ-1984م)، ص55
- ⁶ - ينظر: أسماء أبو بكر محمّد، ديوان عروة بن الورد أمير الصّعاليک، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، (1418هـ-1998م)
- ⁷ - حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربيّ، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، (1976م)، ص176 وما بعدها
- ⁸ - امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: حسن السّندويّ وأسامة صلاح الدّين منینمة، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط01، (1410هـ-1990م)، ص133-135
- ⁹ - امرؤ القيس، الدّیوان، ص88-89
- ¹⁰ - ينظر: ابن الأثير عزّ الدّین، الكامل في التّاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت لبنان، ط01، (1417هـ-1997م)، ج01، ص468
- ¹¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (سورة الفيل)، ج08، ص485، وينظر: ابن هشام، السّيرة النبويّة، تقديم: عمر عبد السلام تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، (1426هـ-2005م)، ص35
- ¹² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج09، ص107

- ¹³ - ابن هشام، السيرة النبوية، تقديم: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (1426هـ-2005م)، ص35
- ¹⁴ - بشير يموت، كتاب شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت لبنان، ط01، (1356هـ-1934م)، ص21
- ¹⁵ - ينظر: بشير يموت، كتاب شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص22
- ¹⁶ - أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت، لبنان، ج01، ص37
- ¹⁷ - ينظر: محمود إبراهيم الرضواني، ديوان الأعشى الكبير، وزارة الثقافة والفنون، الدوحة، قطر، ط01، (2010م)، ص125
- ¹⁸ - شعيب الأرناؤوط وآخرون، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط01، (1461هـ-2001م)، ج03، ص266
- ¹⁹ - ينظر: علي فاعور، ديوان كعب بن زهير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، (1418هـ-1997م)، ص60
- ²⁰ - مفيد محمد قميحة، ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت، بيروت، لبنان، ط01، (1413هـ-1993م)، ص117
- ²¹ - ينظر: محمد السلوم، أدب اللجوء السوري: الشتات والتعبير الأدبي، منشورات مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (يناير 2018)، الدوحة، قطر، غازي عنتاب، تركيا.
- <https://www.harmoon.org/?p=3214>